استظهار صورة الحاكم فى شعر أحمد مطر

أ.م.د. رسول بلاوي (أستاذ مساعد في جامعة خليج فارس، بوشهر- ايران)

عبدالحسين كعب عمير (ماجستير من جامعة فردوسي، مشهد- ايران)

الملخص

كان للتطورات والظروف السياسية التي مرّت على العراق والأوطان العربية أثرها الواضح في شعر الشعراء؛ فالشعراء لم يكونوا بمنأى عن تلك الأحداث، لأنّهم جزء من هذه الشعوب التي كانت تنتظر منهم -بوصفهم لسان حال شعبهم- التعبير عن الحالة القائمة. الشاعر أحمد مطر يصنّف من الشعراء البارزين في مجال السياسة، فهو يصوّر في منشوداته ظلم الظالمين والمصائب الواردة على المساكين المظلومين ويسعى جاهداً لتحريضهم ضد السلطة الحاكمة ويدعوهم إلى النضال ضدّها لكي يظفروا بحقوقهم المسلوبة من جانب المستكبرين. أحمد مطر في نتاجه الشعري يمثل التزاماً أدبياً وأخلاقيّاً تجاه أمته وشعبه، لأنّه لا ينتمي إلى حزب أو فئة أو مجموعة خاصة بل ينتمي لأمة بكاملها فيعبّر عن آلام هذه الأمة المضطهدة والمقهورة.

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي - التحليلي فيسعى إلى دراسة النصوص الشعرية والمضامين السياسية لهذا الشاعر في تصوير الحاكم والتحذير من الاستعمار ومخطّطاته. يهدف هذا البحث إلى استظهار صورة الحاكم في نتاج الشاعر أحمد مطر حيث يصفه بالكلب والحمار، والطاغي والخائن. إنّنا في هذه الدراسة توصّلنا إلى نتيجة مفادها أنّ شعر أحمد مطر بما فيه الشعر الساخر يحمل قضايا إنسانيه عامّة لها أبعاد مختلفة فى مجال السياسة والاقتصاد والإجتماع. وقد تجلّت في قصائده كبريائه الإنسانية التي يراها أرفع من كل ظالم مستبد وأعظم من كل سلطة؛ وبذلك أصبحت نظرته سلبيّة بالنسبة للحكّام الطغاة الذين لا يعترفون بالانسانيّة وكرامة الشعب.

الكلمات الرئيسية: الشعر العربي المعاصر، العراق، أحمد مطر، الصورة، الحاكم.

المقدمة:

أحمد مطر شاعر عراقي مغترب نذر شعره وحياته للدفاع عن الحرية وكرامة الشعب، فقد عالج القضايا السياسيّة والإجتماعيّة في شعره بأسلوب ساخر ومرير؛ وهذا ما سبّب له أن يكون شاعراً قوميّاً متّصلاً بقلوب الجماهير التي نجد التعطّش إلى الحرية والكرامة يجري في كيانها. لأحمد مطر مواقف تجاه الملوك والحكّام تبرز في كثير من أبياته الشعرية بصورة ساخرة؛ فالتّأمل والتعمّق في قصائده يصلنا إلى أنّه وقف في وجه الحكّام وقفة شجاعة ورادعة، فقد فضح الكثير من سياساتها وتآمرهم ومخططاتهم الخبيثة تجاه شعوبهم.

أحمد مطر شاعرٌ تعرّض للظلم والطغيان من جانب الحاكم في نظام بلاده والبلاد العربية لأجل ندائه بالحرية ودعوته للتخلّص من الظلم والطغيان، وأيضاً واجه المتاعب من الأنظمة العربية، تلك الأنظمة التي لم تمنح له الإجازة في إدخال دواوينه إلى أراضيها تحت أي شرط لكونه من الشعراء الذين لم يدنّسوا أقلامهم بمدح الحكّام المستبدين، بل شيّدوا أقلامهم للدفاع عن الحق وحقوق المضطهدين. وممّا يسترعى الإنتباه في شعر أحمد مطر إنّه إستعرض مأساة أهل وطنه وبلاده، فقد قام بتنديد الحكّام الخائنين في شعره وشنّ حملاته على المستعمرين وقام بمحاربة المتزمّتين... وقد حرّض الناس واستنهض هممهم إلى الثأر منهم بصراحة وجرأة.

إنّنا في هذه الدراسة سوف نبيّن مواقف الشاعر تجاه الحكّام وفضح سياساتهم كي نعطي صورة واضحة جليّة عن الحاكم الظالم والمستبد الذي خان الشعب وطغى، ممّا استحق أن يصفه الشاعر بالكلب والحمار. الهدف الرئيسي من هذا البحث، هو دراسة مكانة الحكّام من منظور الشاعر العراقي أحمد مطر، والأسئلة المحورّية التي نحاول الإجابة عنها في هذا المقال هي كما يلي:

١. كيف ظهرت صورة الحاكم المستبد في لافتات أحمد مطر؟

٢. ما هي الأسباب والدواعي التي حرّضت الشاعر على مجابهة الحكام والحطّ من شأنهم؟

سابقة البحث

الدراسات التي قامت بمعالجة تجربة أحمد مطر الشعرية نخصّ منها بالذكر كتاب مسلم مالك الأسدي الموسوم بـ "لغة الشعر عند أحمد مطر" ٢٠٠٧م الذي ركّز على اللغة الشعرية في نتاج الشاعر؛ وكتاب أحمد رضا حيدريان شهري المعنون بـ "در هواي آزادي رهيافتي به زندگى، انديشه و شعر أحمد مطر"١٣٩٢هـ.ش، وقد عالج فيه حياة الشاعر وأفكاره من خلال شعره. وهناك مقالات أخرى بعنوان "الإغتراب في شعر المهجر العراقي (أحمد مطر نموذجاً)" لسيد عدنان أشكوري وجعفر دلشاد، ١٣٨٨هـ.ش؛ و أيضاً "مظاهر أدب المقاومة في

شعر أحمد مطر" جواد سعدون زاده، ١٣٨٨هـ.ش؛ فالمقال الأول قام بدراسة مظاهر الاغتراب في شعر أحمد مطر والثاني ركّز على ملامح المقاومة في شعره دون التعرّض إلى صورة الحاكم.

وأيضاً هناك مقالات باللغة الفارسية منها: "شيوه‌هاى كاربرد طنز در تصاوير فكاهى أحمد مطر" يحيى معروف، ٢٠٠٨م؛ وأيضاً "پژوهشى در انديشه‌هاى سياسى اشعار أحمد مطر" لـأحمد رضا حيدريان شهري، ١٣٩٣هـ.ش؛ و"طنز سياسى- اجتماعى در انديشه‌هاى عبيد زاكانى وأحمد مطر"لجواد سپهرى نيا وسميرا جوكار،١٣٩٢هـ.ش. لقد حفلت هذه الدراسات والأبحاث بالعديد من الملاحظات والاستنتاجات حول أحمد مطر وشاعريته؛ وهي تسلّط الضوء على الإغتراب الروحي وأسبابه لدى الشاعر ودراسة مواقفه الإجتماعية وتصويره لمصاعب ومشاكل المجتمع. ولكننا في هذه الدراسة نكشف عن صورة الحاكم العربي والعراقي خاصّةً وكيفية تصويره في تجربة أحمد مطر الشعرية وهي دراسة جديدة لم تُعالَج من ذي قبل.

صورة الحاكم في الشعر العراقي المعاصر

الشعب العراقي من الشعوب العربية التي واجهت الكثير من المتاعب والاستبداد من جانب حكّامها المستبدين حيث كلّفهم بأن يهجروا وطنهم ويعيشوا مغتربين بعيدين عن وطنهم آلاف الأميال؛ فلا نجد لهم أدنى حرية. وكما هو معلوم بعد أن تُسلَب حرية الشعب لم يكن له شيءٌ يُذكر فلا رأي له ولا كلمة ولا قرار أمام تمادي حكّامه الجائرين الذين مارسوا وقاموا بأنواع الجور ضد شعبهم حيث أخذ الشعراء على عاتقهم عرض هذه الصور البشعة في قصائدهم. الشعراء قاموا بتصوير الحاكم والثورة على واقعه الفاسد. وهذه الثورة أدّت إلى تخليد الشعراء في قلوب الجماهير المتعطّشة إلى الحرية والكرامة والوحدة؛ فالشعب وجد الكثير من هؤلاء الشعراء صادقين ملتزمين بنوايا حسنة. ومن الواضح أنّ الشعراء العراقيين خاضوا تجربة مرّة في حياتهم، قاسوا فيها الكثير من مرارة الواقع المتردّي. فالشاعر هو الذي يختار موقفه في التعبير عن ذاته أو يلتزم بأمانة النضال والدفاع عن قومه وحماية كيانهم إزاء المستعمرين الذين لا يهمّهم شيء غير الحفاظ على منافعهم. فالتزام الأديب يعني «تصدّى الأديب للنضال الفني عن قضايا قومه ومسايرة وضع سائد في مجتمعه لدفاعه عن أهل وطنه مقابل الحاكم المستبّد أو الإستعمار» (بنت الشاطئ،١١١٩م: ٢٢٩).

كثير من شعراء الوطن العربي على الأخص شعراء العراق كأحمد مطر والجواهري ومظفر النواب وشعراء آخرين من جيلهم، يحملون كابوس في روحهم وشعرهم ممّا دفعهم إلى التمرّد والتحريض على الحكّام، الأمر الذي يشكّل سمة بارزة في شعر الشعراء المناضلين؛ حيث نجد أغلب الحكّام يقومون بتكميم الأفواه، وقتل حرية التعبير، فلا نجد لهم اهتمام بشعبهم، ولا يقيمون للمواطن وزناً، فضلاً عمّا يمارسونه من أعمال قبيحة في حق

شعبهم حيث يندي لها الجبين. فالشعراء همّهم الدفاع عن الشعب المظلوم حيث نجد الجواهري في هذا المجال يقول «إنّ الوقوف إلى جانب المظلوم ومساندته ضد الطغاة يمثّل أكبر دوافعي الشعرية، وذلك لأنّي في حياتي مظلوم... وأعتبر الشعر وسيلة أنتقم بها من خلالها لنفسي ولمن معي. لو لم تكن ذاتية الشاعر محور عوالمه كلّها لما كان عبقرياً، ولكان مجرد ناظم أو عابر على الشعر والثقافة أو بهما» (نور الدين، ١٩٩٦م: ٥٣).

الثورة على الحكّام وتصويرهم موضوع كثير من الشعراء «وانّها تتصدّر قائمة الموضوعات التي تتناولها القصائد الحديثة على وجه الخصوص؛ لأنّ الشعر العراقي حفل بالكثير من الأحداث والثورات التي غيرّت خارطة البلد السياسية وخارطة العالم العربي عموماً؛ وانعكس صداها واضحاً في مجمل النتاج الشعري؛ وتميزه بنزوع واضح نحو الاندماج بالمجتمع وقضاياه السياسية تحديداً ومعايشة الهم الوطني الذي حمله الشعراء في ضمائرهم وحولوا قصائدهم إلى اسلحة حقيقيه تعري وقاحة الطغاة المستبدين» (جدوع،٢٠١٢ م: ٤).

الشعر العراقي المعاصر والحديث من قبله ورث هموم المجتمع العراقي وانعكست الأحداث السياسية والاجتماعية على مضامينه بشكل ملفت؛ وهذا ما يحصل بسبب استبداد الحاكم وطغيانه وأيضاً حالة الفوضى السياسية والاحتلال الأجنبي.

حياة أحمد مطر وشاعريته:

هو أحمد حسن الهاشمي وقد عُرف بالمطر لأنّ جده كان معروف بـ"مطر". هذا الشاعر وُلد فى عام ١٩٥٦ في إحدى ضواحى البصرة؛ الابن الرابع لأسرة فقيرة، تتكوّن من عشرة إخوة من البنين والبنات، في قرية التنومة إحدى نواحي "شط العرب" المعروف بـ "أروند رود" في البصرة. أحمد مطر بسبب الظروف الحادّة وقسوة الحياة لم يتوفّق في دراسته فمال إلى الكتابة ليهرب من واقعه. وإضافة إلى الكتابة كان يتطرّق إلى الأحداث السياسية التي تجري في وطنه. فراح يتناول الموضوعات التي تنطوي على تحريض الناس واستنهاضهم مقابل الإستبداد للتخلّص من الواقع المرير الذي يعيشون فيه. ولما سُئل كي يعرّف نفسه باختصار قال «رجل ولد وعاش ومات، ثم استرسل وأنا أعتقد ان سيرتي شأن أي مواطن آخر فى أوطاننا الجميلة يمكن أن تروى على النسق نفسه بشيء من التطويل لتكون كالتالي: رجل ولد ولم يعش ومع ذلك سيموت» (عايش،٢٠٠٦م،ج١: ٧).

أحمد مطر له دواوين شعرية منها: لافتات(١)، لافتات(٢) التي تكون فى بنية موضوعية واحدة، أو فى بنية موضوعية متماثلة «هى تسويغ أفعال الحاكم العربي أو تعليلها إلى وجهة أخرى غير الوجهة الحقيقة» (السعيدي،٢٠٠٨م: ١٧٤). هذا الشاعر يُعتبَر مدرسة حديثة في الشعر العربي السياسي، فهو لم يقل شعراً في

مجال القصيدة الغنائية؛ وديوانه اللافتات لم يحتوِ على أيّة قصيدة عاطفية غنائية فهو «شاعر عصاميّ سخّر فنّه وشعره كلّه من أجل القضايا السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية في بلاد العرب؛ فقصائده نبرة النقد والاستياء، ومظهر من مظاهر الاستبداد والتخلّف بكل وضوح» (اشكورى،١٣٨٨هـ: ۶۷).

موقف أحمد مطر من الحاكم

مرّ العراق فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن المنصرم بحقبة زمنية لم يُوجد لها مثيلاً فى تاريخه القديم والمعاصر. فقد مارست السلطة أشكال الظلم والاضطهاد ضد الشعب؛ وهذه السلطة قامت بطمس معالم الحق والعدالة وقتل الكثير من أبناء هذا الشعب وخداع الآخرين؛ فقد ظهرت جراء تلك السياسات الرعناء وبطش النظام جماعة من أصحاب العقول وأصحاب الأقلام فانتهجوا سبيلاً قويماً في الذود عن كرامة الشعب وحقوقه المشروعة وهناك شعراء شرفاء نذروا أنفسهم لخدمة هذا الشعب المضطهد. كان الشاعر العراقي أحمد مطر من أبرز الشعراء المناهضين لهذه السلطة وأشباهها في الوطن العربي؛ فهو لأجل لهجته الصادقة، وكلماته الحادّة، ولافتاته الصريحة، أثار حفيظة معظم السلطات العربية.

أحمد مطر أوّل مناهض عربي في وجه الحكّام وجاء بصور جميلة فى تقريضه عن أساليب السلطة الجائرة فقد رسم صوراً واقعية تكشف عن الأوضاع التي عاشها الشعب. أحمد مطر يفتخر بنهجه ودفاعه عن وطنه فهو اتّخذ رسالة ساميّة على عاتقه تجاه وطنه العراق بل تجاه العالم العربي بأسره. قصائده تتناول الواقع المرير بلا رتوش ولا تزيين ولا تزوير، وهو لا يتوانى عن أي نقد لاذع لأي ظاهرة سلبية تجرى في البلاد العربية. ففي تصوّر الشاعر أنّه ليس ناطقاً بإسم قبيلة، بل لسان ناطق بحال أمّته كلّها، والانسانية برمّتها، وإنّه حسب تعبيره «لم يكن في يوم من الأيام عضواً فى عصابة أو حزب أو حركة، بل إنّه يشكل دولة بلا شرطة ولا رقباء، يرى الأشياء بعين صافية مجردة، خالية من الايديولوجيا، أو مكاسب وأرباح الحزب أو الأنظمة أو السلطة، إلى أن يقول: أنا ابن عربية وربيب حضارة إسلامية، وفي وجداني من آثارها فيض لا يغيض» (غنيم، ١٩٩٨م: ۴۲-۴۳).

يتمتّع أحمد مطر بمكانة مرموقة في الشعر العربي وبالأخص في الشعر العراقي الحديث لأنّه شاعرٌ له بصمة لا تُنكر في إثارة روح الثورة والتمرّد ضد الواقع الفاسد. فالتكلّم عن هذا الشاعر والحديث عنه ذو شجون، فهو شاعر كبير، ثري بفكره ولغته وصوره، والشيء الأهمّ من ذلك ما نشاهده في أشعار الشاعر موقفه من قضايا أمّته، حيث ألقى بنفسه في فترة مبكرّة من حياته في النار. ولم يتوان في فضح سياسات الحكّام وأعمالهم البشعة تجاه الشعب.

أنماط صورة الحاكم عند أحمد مطر

لا شك أنّ الشعر من المظاهر القيّمة والعظيمة في طريق استنهاض همم الشعوب المضطهدة ضد إرادة الحكّام الطغاة الذين لم يكن في قاموس حياتهم وحكومتهم إلّا الكبت والقمع. وقد تمكّن الشاعر أحمد مطر من خلال أنماط الصورة وأنواعها يرسم لوحة متكاملة شاملة، تظهر فيها صورة الحاكم في داخل العراق والبلدان العربية الأخرى. واستطاع أن يلوّن صورة الحاكم بألوان مختلفة وما أصاب البلاد من جانب الحاكم من قتل وتشريد وتعذيب ويصف الظلم والإضطهاد الشامل في مجتمعه ويشير إلى أنّ هذا القهر يكون ملازماً للإنسان العربي وهو كظلٍ يجري معه في كل مكان، إذ أنّه من خلال أنماط الصورة تمكّن من إظهار الصورة الحقيقية للواقع الذي يعيشه العراق، ورسم «بقصائده صوراً واضحةً من معاناة الإنسان العربي وفداحة الألم الذي أُصيب به. وهو استطاع أن يستخدم ألوان السخرية بغزارة في شعره لا سيّما في المجال السياسي» (عامري وآخرون،٢٠١٥: ١١). وأبدع في رسم الصورة الحقيقية للحاكم من خلال الجانب البياني، فمهّد طريق الاستنهاض في مقابلة الظلم والاضطهاد ووطّد دعائمه. انخرط الشاعر في المجال السياسي وتعرّض لمصائب جمّة ودخل السجن وكانت القصائد التي ينشدها تكون رصاص يقضُّ مضاجع الحكّام الفاسدين والخونة. فالشاعر أحمد مطر من الشعراء الذين كرّسوا اهتمامهم ليقابلوا الحكّام الخائنين الذين لا يهمّهم شيء إلّا حفظ المنصب ومصالحهم. فهؤلاء الشعراء «أكثر جدلاً في الحياة السياسية العراقية، وهم يمثّلون طليعة من طلائع النضال في التراث السياسي العراقي، وفي حاضره الثقافي أيضاً، وهم لم يكونوا يوماً من هواة العيش الهانيء الهادئ، بل كانوا مناضلين مهمومين بآفة الاستعمار وبحقوق الشعوب المناضلة من أجل حرّيتها وكرامتها، وبأساليب القتل والغدر التي مارسها الصهاينة والفاشيون والرجعيون، حيث يمارسونها في كل بقعة من الأراضي العربية» (يعقوب،٢٠١٠: ٧).

١: صورة الحاكم الطاغي

في قصائد أحمد مطر هناك صور كثيرة مهيمنة على شعره، منها صورة الحاكم الطاغي في البلدان العربيّة، فيوضّح فيها الطبيعة النفسية للحاكم وظلمه وطغيانه. أحمد مطر يشنّ هجومه على منظومة الحكم العربي القائم وينتقد الأوضاع السائده في الوطن من حروب وكوارث ومجازر موت بالمجان؛ فيحمّل الحاكم مسؤوليّة كل هذه الويلات والدمار ويرسم صورته الحقيقيّة:

غير إنّي في زمانِ الفرزِ

أنحازُ إلى الفوزِ

فإن خُيرتُ ما بينَ اثنتين

أن أغني مترفاً عند يزيد

أو أصلّي جائعاً خلفَ الحسين

سأصلّي جائعاً خلفَ الحسين(مطر، ٢٠٠١م: ١٦٦).

فالشاعر يتّخذ الإمام الحسين (ع) ليكون رمزاً لكلّ مناضل وطني شريف يحاول أن يحقّق ما كانت له من تطلّعات ثورية متمثّلة بالتخلّص من السلطة الفاسدة، والحصول على الحريّة التي كانت مفقودة من جانب الحاكم الذي لا يهمّه إلّا الحكم. ونجد في مقابل هذه الشخصيّة النزيهة يستخدم الحاكم الأموي "يزيد بن معاوية"، حيث جعله الشاعر رمزاً للحاكم المتسلّط والطاغي الذي يغدق الأموال على أصحابه وحاشيته بغيّة استمراريّة حكمه، ويحاول بكل ما يمتلك القضاء على كلّ خط ثوري يطالب بحقوقه.

أحمد مطر في قصائده كما أشرنا من قبل يتطرّق إلى طغيان الحاكم، ويرسم لنا صورة طغيانه؛ منها قصيدة "هذا هو السبب"، حيث يقول:

صارَ النهارُ ليلةً داجيةً

مِنْ شدةِ الظلمةِ

صارتْ لا ترى طريقَها الأحلامُ!

قلنا عسى أن يكتفي

لم يكتف النظام(السابق: ٣٠٧).

فيشبّه الشاعر (النهار) – ويقصد به الواقع العربي– بالليلة الداجية المظلمة، حيث لا نجد له في معيشته طريق إلى النور، لكثرة العراقيل التي يجدها في طريق ما يحاول تحقيقه، وعمد الشاعر إلى حذف أداة التشبيه لتمييز الصورة، وتأكيدها لكي تنطبع بقوّة في الذهن. ففي هذا المقبوس الشعري يتكلّم بصورة غير مباشرة عن ظلم الحاكم وطغيانه وما يواجهه الشعب المضطهد في هذا المجال، بحيث نجد النهار في أعين كثير من الناس من شدّة الاضطهاد مظلم؛ وفي رأي الشاعر أنّ هذه الظلمة تعود إلى بطش الحاكم وطغيانه. و نجده يشير إلى أنّ هذا القهر والإضطهاد يكون ملازماً للإنسان العربي و هو كظلٍ يجري معه في كل مكان.

كما نجد له في قصيدة أخرى يصوّر طغيان الحاكم فيقول:

إنّ المنايا في بلادي دائرةٌ

جائعة وضامرة

تبحثُ عن كسرةِ روحٍ

عنْ دمٍ، عن أدمعٍ

تبحثُ عن شعورِ

عندما تفشلُ في العثورِ

على حياةِ حيّة

تخرجُ في مظاهرِه

فيأمرُ الحاكمَ باغتيالها

... بمقتضى الدستور

حتى الردى يقتلُ عندما إذا

حاولَ أن يثورَ! (السابق: ١٢٧).

يصوّر الشاعر كثرة المنايا وتزاحمها في البلاد بصورة ساخرة، فهي دائماً تدور رحاها وتبحث عن الأرواح لطحنها، وإنّ لم تجد ذلك تخرج في مظاهرة عارمة للحصول على مبتغاها، فيأمر الحاكم باغتيالها خوفاً من أن تحرّض الناس على حكمه فيُسلَب منه؛ حتى الموت لا يُسلَم من القتل إذا ما حاول الثورة والحركة في نظام هذا الحاكم الظالم الطاغي المستبد.

٢ :وصف الحاكم بالكلب

أحمد مطر في موقفه المتشدّد بالنسبة للحكّام لم يكن في طلب الشهرة، أو إثارة ضجّة بين الأوساط الشعبية والمحافل المختلفة، وإنّما ينبع من إيمانه العميق ومعتقده بضرورة الإصلاح والتغيير؛ وذلك يكون بإيصال صوته إلى كل من يهمّه الأمر في انقاذ الذين تعذّبوا في أصقاع الأرض والتصدّي إلى الذين لهم يد في هذا التعذيب والتنكيل. فهو في هذا المجال إذا كان معروفاً، فذلك يعود إلى إلحاحه لإيصال الكلمة الحرّة الصادقة إلى أبعد

رأس مغمور بضلالات الحكّام ومرتزقتهم؛ وأجمل ما يكون في هذه المعرفة إنّها قائمة على التشارك الفعلي في الهمّ والتطلّعات. ولم تخمد جمرة أحمد مطر في روحه الشعرية في فضحه لدور الحاكم المشبوه المدعوم وهو يستخدم ألفاظاً في غاية الفحش والإقذاع ويهجم عليهم ليظهر سوءاتهم وكيفيّة معاملتهم القبيحة مع الشعب؛ ويخاطبهم بألفاظ تكن في غاية القبح منها الكلب؛ حيث يصف الحاكم بالكلب في نصوصه الشعريّة بصور مختلفة:

سواسيةٌ

نحنُ كأسنان كلابِ الباديةِ

و الزهو للأذنابِ

وبعضنا يسحقُ رأس بعضنا

كي تسمنَ الكلابُ (السابق: ٥٧).

فالشاعر استخدم التشبيه في هذا النصّ حيث شبّه الشعب بأسنان كلاب البادية للدلالة على تقاعسهم وتخادلهم إزاء ما يتعرّضون له من نكبات وحروب واضطهاد وقمع، على يد بعضهم لا لشيء يحقّق لهم نفعاً، بل ليخدم الحكّام الخونة، الذين يشبههم الشاعر بالكلاب؛ هذه الكلاب التي تقتات من جيف الشعب وتسمن فيعود شرّها إلى أهلها.

أحمد مطر يخاطب الحكّام وينعتهم بلفظة "كلب" في نصوص أخرى أيضاً؛ منها قصيدة "المنتحرون" حيث يقول فيها:

اسكتوا

لا صوتَ يعلو

فوقَ صوتِ النائحةِ

نحنُ امواتٌ

وليستْ هذه الأوطان إلّا أضرحةْ

قُسِّمتْ أشلاؤها

بينَ ذبابٍ ونسورْ

وأقيمتْ في زواياها القصورْ

لكلابِ المشرحه!(مطر، ١٩٨٩م: ١٥).

أحمد مطر في هذا المقبوس يخاطب أبناء الشعب فيرفع صوته عالياً بلفظة "أسكتوا" لعجزهم وتخاذلهم وعدم الإكتراث بالواقع المرير. ثم يصف الشعب بأنّهم أموات لا وجود لهم في خارطة الوطن، فكل شيء يعود إلى الحاكم الذي يقودهم كيفما شاء، فيرى الشاعر أنّ هذه الأوطان مجرد أضرحة تضمّ بين دفتيها أموات الشعب الذي ذُبِح وقُسِّمت أشلاءه بين الذباب والنسور من حاشيّة الحاكم الكلب. وفي هذا السياق استعار الشاعر لفظة "الكلاب" ليشير إلى الحكّام الطغاة الذين جمعوا حول قصورهم الذباب والنسور وقاموا بأبشع وأعنف الأمور للحفاظ على مناصبهم فقتلوا وذبحوا كل من وقف في طريقهم.

أحمد مطر من الشعراء الأحرار الذين أعطوا الكلمة الشعريّة معنى وكانوا شوكة في عين الأنظمة الحاكمة الطاغية فلم يتراجعوا من نضالهم وموقفهم الباسل، فحرّضوا الناس على الحاكم ثم وصفوه بأقبح الأوصاف لكي يكشفوا عن ماهيته للمواطن جيّداً.

٣.خيانة الحاكم

أحمد مطر من أبرز شعراء المقاومة في الأدب العربي الحديث فقد دافع عن بلده وناهض وناضل الحكّام، غير مكترث بما واجهه من عذاب ومحن ونفي وغربة في سبيل حريّة أهل بلاده. فهو شاعر المقاومة التي تكون «أدب الصرخة الشجاعة بوجه الظالم، وصيحة المظلوم بوجه الغاضب المستبّد....؛ فحرمان الشعب والفقر والاضطهاد من قبل السلطات والقسوة والتعذيب ومرارة الواقع كان دافعاً لنظمه الشعر السياسي ووقوفه موقفاً جريئاً بوجه السلطة والإحتلال» (بلاوي وآباد،١٤٣٥هـ: ٢١-٢٢).

فممّا يزيد في ألق صور أحمد مطر الشعرية، إنّه يعبّر عن حقائق تكن واقعية وملموسة لدى شعبه ولها صدى كبير على أرض الواقع. في قصيدة"سلاح بارد" يتكلّم عن الضحايا التي ينزف دمها في البلاد بقيمة رخيصة، فيطلب من أبناء شعبه الاستنهاض في وجه الحاكم الخائن الذي يكون سبباً وعاملاً للاستعمار:

إذا الضحايا سُئلتْ

بأيِّ ذَنبٍ قُتلتْ؟

لانتفضتْ اشلاؤها وجلْجَلتْ:

بذنبِ شغبٍ مُخلصٍ

لقائدٍ عميلٍ! (لافتات٢: ١١).

فالشاعر في هذا النصّ الشعري يشير إلى الحاكم الخائن الذي يكون عميلاً للاستعمار وينفّذ ما يطلبون منه دون اكتراث بدماء الشعب المضطهد. وفي هذا المقبوس تناص قرآني لطيف حيث استحضر الشاعر هنا النص القرآني الغائب ﴿وَإِذَا المَوءۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير/ ٨و٩)، فكما أنّ المؤودة قُتِلت بغير ذنب، فهذا الشعب أيضاً تعرّض للقتل والسلب والنهب دون ذنب، وسبب ذلك يعود إلى خيانة الحاكم الذي لا يهمّه إلّا مطامعه وتنفيذ أوامر الاستعمار.

أحمد مطر لم يكن كسائر الشعراء في شعره الساخر فحين يسخر من نظام الحكم، سخريته كلّها هموم وحزن وألم؛ وهذا ما يميّزه عن الشعراء الآخرين، فعلى سبيل المثال نجد مصطفى جمال الدين يقول في هذا المجال «لم يجدوني تخلّفت يوماً ما عن المشاركة في قضايا وطني أو أمتي أو معتقدي. ومع ذلك، كنتُ في شعري أتغزّل إذا أحببت وأضحك إذا داعبت...أبكي إذا فقدت عزيزاً وأنتشى إذا سامرتُ رفيقاً...أتألم إذا جرحني صديق وأفرح إذا وُلد لي مولود. فهل يُعتبر الشاعرُ، في عُرف هؤلاء الالتزاميين، ملتزما أم ماذا؟»(الخزاعي،٢٠٠٨م: ٥٣).

٤. وصف الحاكم بالحمار

تكمن شهرة الشاعر العراقي أحمد مطر في الشعر الذي أبدعه وأنشده واعتاد أن يقدّمه لعطاشى الحريّة المفقودة في بلادهم، فقد كرّس حياته في التغنّي بالحريّة هذه الظّالة المنشودة في وطنه وفي سائر البلدان العربيّة؛ وقد رفع صوته عالياً دون خوف بوجه الحكّام وتمرّد عليهم وعلى أنظمتهم القمعيّة. فنجد لسانه الشعري في كثير من الأحيان حادّاً وقاسياً في خطابه للأنظمة العربيّة التي يكون سعيها وجهدها تنكيل الانسان العربي وتحنيطه وامتناعه من أي تقدّم وتطوّر في الحياة؛ فالشاعر أحمد مطر كما وجدناه مخالفاً لهذه الأمور ومعانداً لها ويرفض هذه التقيّدات التي تفرضها السلطات؛ وقد اختار السباحة ضد هذا التيار الظالم الذي يجرف أي شيء يتعرّض في طريقه.

نجد الشاعر يخاطب الحكّام بألفاظ قبيحة ويستهزئ بهم؛ حيث نجده في قصيدة "هذه الأرض لنا" يشير إلى الحاكم بلفظة "جلالة الحمار":

قوتُ عيالِنا هنا

يُهدرُهُ جلالةُ الحمارِ

في صالةِ القمارِ.

و كلُّ حقّهِ بهِ

أن يعبرَ جدِّهِ

قد مرَّ قبلُ غيرهِ

بهذه الآبارْ (لافتات٢: ٥).

فهنا يخاطب مطر الحاكم الخائن العميل بـ "جلالة الحمار" مستهزئاً به وبقدراته المزيّفة، حيث لا قدرة له سوى اهدار قوت الشعب المسكين، فيصادر ثروات الشعب للأجانب في صالة المساومة والقمار بغيّة الحفاظ على مكانته ومنصبه.

السلطات الظالمة طالما تضع القوانين لتكميم أفواه الشعراء فلم تسمح لهم أن ينشدوا الشعر كيفما يروق لهم فتضع خطوط حمراء يجب الالتزام بها أو تحاول استمالة الشعراء واستقطاب طاقاتهم لصالح النظام. أمّا هناك شعراء شرفاء لا يثني عزمها كيد الحاكم ومؤامراته فتعلتي أصواتهم ضد الظلم والجور، ومن بين هذه الأصوات التي تقيم للكلمة وزناً صوت الشاعر أحمد مطر الذي كرّس اهتمامه وحياته للدفاع على الحريّة وكرامة الشعب مهما كلّفه ذلك من ثمن؛ في قصيدة" الجدار" يشير إلى السجن الذي عانى فيه ما عانى وما جرى عليه خلال هذه الفترة؛ فيخاطب الحاكم بأسلوب تهكمي بالحمار الذي سجن الأسد:

لحارسي، ولي أنا...صِغارْ

وزوجةٌ ودارْ

لكنّه مثلي هنا

جاءَ به وجاء بي قرارْ

وبيننا الجدارْ!

يوشك أنْ ينهارْ

إلي أن يقول:

وقبل أن ينهارَ فيما بيننا

حدّثني عن أسدٍ

سجّانه حمارْ (السابق: ٨).

يتحدّث الشاعر هنا عن الظلم الذي تعرّض له هو وسائر المناضلين في السجن، فقد تركوا أطفالهم، وزوجاتهم وبيوتهم من أجل عزّة الشعب وكرامته. فهذا مصير من أراد التغنّي بالحريّة والدفاع عن حقوق الشعب، وهذا هو مصير المناضل/ الأسد بيد الحاكم/ الحمار الذي لا يعرف سوى القمع والزج في السجون.

الشاعر فى هذا النص الشعرى يكون فى حلق السلطة يرضخ في سجونها، فيفضح كل شعاراتها المزيّفة التي يوجّهها الحكّام إلى شعبهم بكذب وخداع، فهكذا تتجلّى السلطة عند الشاعر في جرائمها الجماعيّة، وتقوم بنسج هلاك المجتمع، وتظهر السلطة غارقة في أنانيتها وتفكر في حساباتها الذاتية، بينما نجد الشاعر يقدّس هذا الانسان الذي سجدت له الملائكة وأكرمه الله بالنسبة للمخلوقات الأخرى. الشاعر يقبل كل شيء غير الذل والهوان الذي لا يُطاق عند الانسان المسلم الحقيقي، كما يهجم على مصالح السلطة والاعتراف بها؛ فهي سلطة لم تكن نابعة من الشعب ولم يختارها الشعب طوعاً بل فرضت نفسها بالقوّة والظلم ولا يهمّها أمر الشعب ومصلحته.

أحمد مطر في قصيدة "بغل مُستنير" ينتقد حكّام العرب؛ ويصوّر ظلماتهم بصورة جميلة. هو يحطّ من شأن حكّام العرب إلى أدنى درجة، حيث نجده يصفه بالبغل؛ فيقول:

قال بغلٌ مُستنير واعظاً بغلاً فتيّاً:

يا فتى إصغ إليّا

إنّما كان ابوك امرأ سَوءٍ

وكذا أمُّك قد كانت بغيّا

أنت بغلٌ يا فتى...و البغلُ نغلٌ

حكمةُ الله، لأمرٍ ما، أرادتك غبيّا

فاقبلِ النّصْحَ تكنْ بالنصحِ مرضيّاً رضيّا

أنتَ إنْ لَمْ تستفدْ منه فَلَنْ تخسر شَيّا

يا فتى مِنْ أجلِ أنْ تَحْمِل أثقال الورى،

صيَّرك الله قويّا.

يا فتى فاحملْ لهم أثقالهم مادُمتَ حيّا

واستعذْ من عُقدةِ النقصِ

فلا تَركلْ ضعيفاً حين تلقاه ذكيّا.

يا فتى احفظ وصاياي تَعشْ بغلاً، وإلا

ربما يمسخُك الله رئيساً عربياً (لافتات٥ : ٧٦).

أحمد مطر في هذا النصّ الساخر ينقل للمتلقّي حواراً دار بين بغلينِ، ويجسّد الأوضاع المتردّية من هذا المنظار وعن لسانهما. في هذا المقبوس ينصح البغل المستنير بغلاً فتيّاً بلغة ساخرة، ثمّ يحثّه على حفظ هذه النصائح ليعيش راضيّاً مرضيّاً ويحذّره من التساهل وعدم الاكتراث بها فعندئذٍ يمسخه الله رئيساً عربيّاً؛ فكما هو واضح عند الشاعر البغل أرفع شأناً ومنزلة من الحاكم العربي.

نتائج البحث

بعد استقرائنا لأمثلة متعدّدة من شعر أحمد مطر، وجدنا لها جذوراً عميقة في أرض الواقع الإجتماعي للأمّة العربيّة عامّةً وللشعب العراقي خاصّة، فقد ترك مطر شعره أن يكون ناطقاً عن صلته المتينة بجماهيره وأمّته المضطهدة، ومشاركته في المعاناة المستمرّة، ومكابدة الظروف السياسية القاسية والإقتصادية المتردّية؛ وقد أصبحت نظرته سلبية بالنسبة للحاكم المستبّد حيث تبرز هذه النظرة في كثير من نصوصه الشعرية.

لقد تجلّت في قصائده كبريائه الإنسانية التي يراها أرفع من كل ظالم مستبد، وأعظم من كل سلطة، فهو يحاول أن يعيد للإنسان قيمته الحقيقية وكرامته التي فطر الله الإنسان عليها؛ فتحدّى الحاكم والسلطة الظالمة كي يستعيد كرامة الشعب.

لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد الشاعر من الطعن في الحكّام والنيل منهم، وكشف مفاسدهم ومطامعهم الخبيثة، وقد تجلّى ذلك بوضوح؛ حيث ساهمت لافتاته إلى حدّ كبير في تأجيج نيران الغضب والتمرد ضد الحكّام الخائنين، فكتب على نفسه ألّا يسكت حتى يتحقّق هدفه المنشود وهو الإطاحة بالطواغيت الحاكمة. وله سخريه يستخدمها للهجوم على الحكام والسلطة والأجهزة الإعلامية لإفشاء مؤامراتهم تجاه الشعب المضطهد. وهذا ما يدلّ على مخالفته للحكّام المستبدين. ولعلّنا نستطيع أن نقولَ بأنّنا لم نجدْ قصيدة للشاعر تخلو من هذا الأسلوب.

نجد أحمد مطر في نتاجه الشعري يتطرّق إلى الحاكم ويصوّره للمتلقّي حيث نجد لفظة الحاكم ومرادفاتها تتكرّر ٦٦٤ مرة في شعره. كما نجده مجابهاً للنظام الحاكم طوال حياته، حيث لا يخشى أن يصفهم بالخونة والكلاب والحمير دون خوف أو تحفّظ.

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم

– الأسدي، مسلم مالك (٢٠٠٧م). ***لغة الشعر عند أحمد مطر***. مجلس كلية التربية بجامعة بابل.

– اشكوري، سيد عدنان (١٣٨٨هـ.ش). «الاغتراب في شعر المهجر العراقي أحمد مطر نموذجاً».***بحوث في اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان***.العدد الأول. صص ٦٣-٧٨.

–بلاوي، رسول ومرضيه آباد (١٤٣٥ هـ.ق). «ملامح المقاومة في شعر يحيى السماوي»،***آفاق الحضارة الإسلامية***، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية. السنة السابعة عشرة. ١٤٣٥. صص١٩- ٤٩.

– بنت الشاطيء، عائشة عبدالرحمن (١١١٩م). ***قيم جديدة للأدب العربي القديم و المعاصر***. الطبعة الثانية. مكتبة الدراسة الأدبية.دار المعارف.

– جدوع، نصرة أحميد (٢٠١٢م). «***الأدب و الثورة، الأدب العراقي المعاصر أنموذجا***». قسم اللغة العربية جامعة الأنبار.

– الخُزاعي، طالب مرزه (٢٠٠٨م). «*السيد* مصطفى جمال الدين السهل الممتنع».***الأصالة مجلة أدبية ثقافية، النجف الأشرف***.العدد الأول.صص ٥٢. ٥٦.

– عامرى، شاكر، وعلي صياداني وصديقه أسدي (٢٠١٥م). «أسلوب شعر أحمد مطر السياسي رؤية نقدية»، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٢١، صص٣. ٢٣.

– غنيم، كمال أحمد (١٩٨٨م). ***عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر***. الطبعة الأولى. القاهرة: الناشر مكتبة مدبولي.

– مطر، أحمد (١٩٨٩). ***إني المشنوق أعلاه***. الطبعة الأولى. لندن: دار الساقي

– ـــــــــــــ (٢٠٠١م). ***الأعمال الشعرية الكاملة***. لندن: دار الساقي.

– نور الدين، جودت ***(١٩٩٦). مع الشعر العربي أين الأزمة***. الطبعة الأولى. بيروت: دار الآداب.

– يعقوب، أوس داوود (٢٠١٠م). **أحمد مطر، سيرة شاعر انتحاري**. دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.